الإمام أبو عبد الله محمد المازري
العالم والطبيب والفقيه المجتهد (453 - 536 هـ / 1061 - 1141 م)

عمر بوزقندة

هو أبو عبد الله محمّد بن علي بن عمر بن محمّد التميمي المازري نسبة لمازر، وهي مدينة على الساحل الجنوبي من جزيرة صقلّية بإيطاليا كما ذكرها الإدريسي حسبما جاء في كتابه «**المسلمون في صقلية**» ونصّه: «**مازرة مدينة فاضلة شامخة**» وافترض أنّ تسمية التميمي تفيد أنّ جدّه كان من التميميين الذين أرسلهم الأمير الأغلبي في الجيش الذي فتح صقلّية ولا يبعد أنّه خرج منها أثناء الفتنة التي أدّت بهذه الجزيرة إلى استيلاء النرمان عليها سنة 464 هـ / 1071 م. وقد تخرّج الإمام عن شيخين جليلين هما أبو الحسن علي بن محمّد اللخمي دفين صفاقس والمتوفى سنة 498 هجري، وعبد الحميد بن الصائغ القيرواني السوسي نزيل سوسة والمتوفّى بها سنة 486 هجري.

واكبت حياة المازري الدّولة الصنهاجيّة في أعقاب أيّامها حيث كانت الفتن قائمة على قدم وساق، فهناك فتنة سياسية حيث انقسمت دولة صنهاجة على نفسها وافترق ملكها إلى دولتين، والتفكك عمّ أطرافها. وفي هذه الفترة عاش المازري ورأى أثرها في أمّته التّي أصبحت فريسة سائغة للمتغلّبين من النرمان الذين تغلّبوا على المسلمين بصقلّية وأخرجوهم منها، واحتلّوا المهدية سنة 480 هـ. وبجانب هذا الانقسام السياسي كان هناك انقسام في العقيدة أحدثه الشيعة المتغلّبون على البلاد الذين حاربوا السنّة حربا عشواء في مذهب مالك.

فقام المازري بتهذيب المذهب المالكي في نطاق أصوله، فكان فقيها متحرّرا في آرائه واستنباطه ومراعاته للمذاهب الأخرى. وكان ينتمي لصنف العلماء الذين ساروا في طريق العلم وركّزوا قواعده وتعمّقوا في دراسته وبذلوا الجهد للتّفتح على الحياة وملاءمة مقتضيات العصر. على أنّ الشهرة التي بلغها المازري في علمه وتقواه قد أحيطت بهالة من التعظيم والتقدير والتقديس، تحوّلت إلى حكايات شعبية فيها الكرامات وخوارق العادات (منها ماهو شائع عن أهل المنستير أنّه لمّا تمّ نقل رفاته إلى مقامه الحالي بعد أكثر من 600 سنة وجد جسده المكرّم لم يتغيّر) وغنّى المنشدون ألحانا دينية فيها الإشادة بفضائل المازري والتنويه بشأنه وسمّى النّاس أبناءهم باسمه.

أمّا عن تلاميذه فهم كثيرون، فمنهم الإفريقيون أبناء سوسة والقيروان والمهدية، ومنهم المغاربة الذين اجتمعوا به بالمهدية أو راسلوه لنيل إجازته. ومن أشهر تلاميذه القاضي عياض سبتي الدّار والميلاد أندلسي الأصل ولد سنة 476 هـ / 1083 م وتوفيّ سنة 544 هـ / 1149 م والذي أكمل عمل شيخه المازري في شرح مسلم في كتاب سمّاه «**كمال المعلم**».

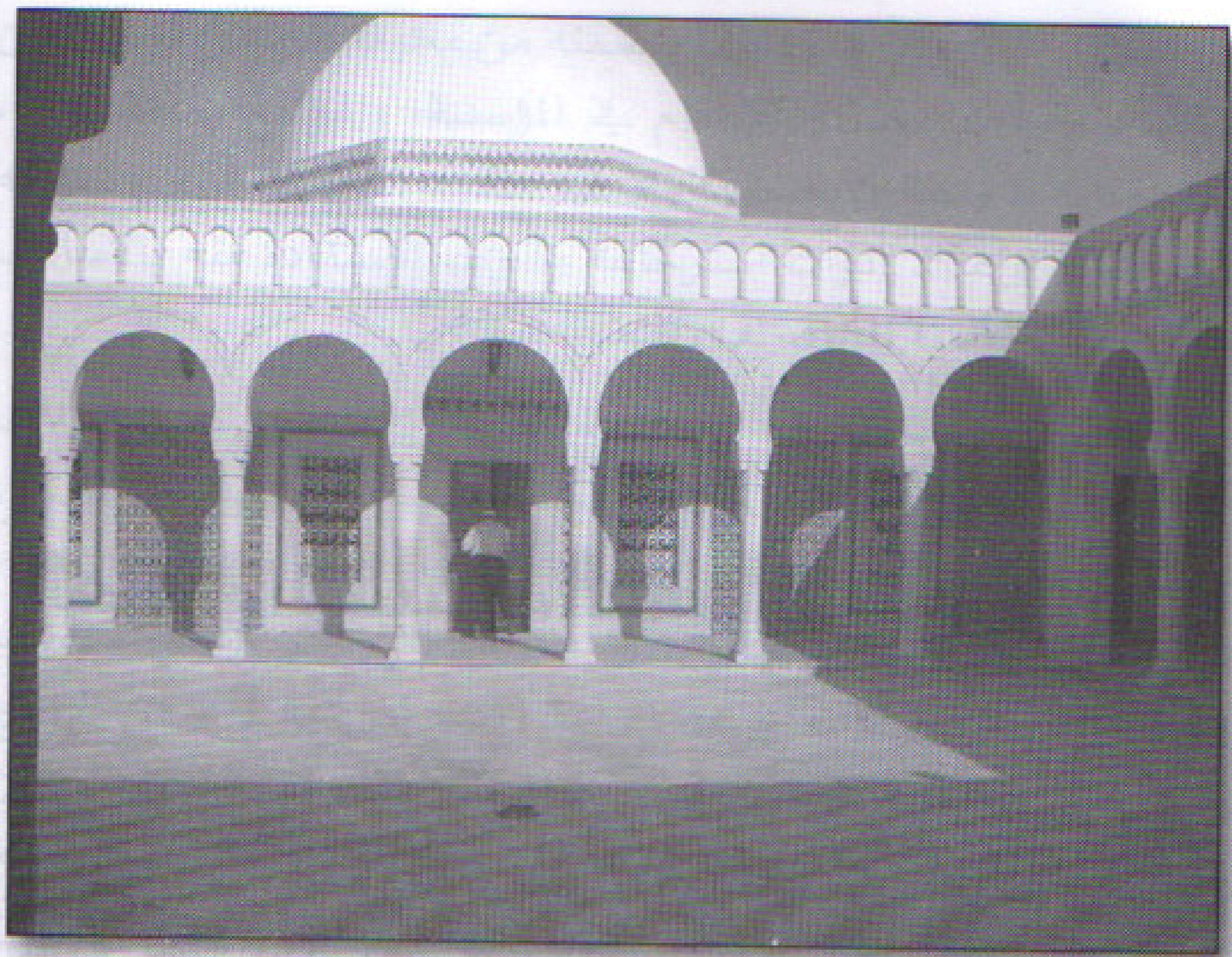

ولعلّ إشعاع المازري لعب دورا كبيرا في استجلاب عدد محترم من الطّلبة الأندلسيين الذين كانوا عند رحلتهم لأداء مناسك الحجّ يزورون مدنا بإفريقيا ومصر والحجاز كالإسكندرية والمهدية ويأخذون العلوم المختلفة عن كبار العلماء. وتمثّل طريقة المازري الفقهية الطريقة القيروانية الأصيلة التي تتمثّل في التمكّن من ملكة التعليم وملكة التلقي، وقد أخذ في دروسه بالطريقة النبويّة بالاستجمام، حيث يأتي بحكايات قصد الترفيه على طلبته حتّى لا يكلّوا من تتابع المسائل ممّا يؤدّي بهم إلى الملل.

ومن لطائف دروسه أنّ بعض طلبة الأندلس ورد على المهدية وكان يحضر مجلس المازري فدخل شعاع الشمس من كوّة فوقع على رجل الشيخ فقال: «**هذا شعاع منعكس**» فذيّله الطالب بنظم متزن:

هذا شعاع منعكس — لعلّـــة لا تلتبس

لما رآك عنصـــرا — من كلّ علم ينبجس

أتى يمدّ ســاعدا — من نور علم يقتبس

ولعلّ هذه الحكاية توحي لنا بمدى العناية التي كان يحيط بها المازري طلبته الأندلسيين والجو النفسي المرح الذي كان يسود دروسه كما بيّن ذلك الشيخ الفاضل بن عاشور في كتابه «**أعلام الفكر الإسلامي**».

ويمتاز فقهه باعتماده على العلوم الطّبّية، فقد كان إماما في الطبّ وألّف فيه وكان يفزع إليه في الطّب كما يفزع إليه في الفتوى. كما امتاز المازري بكونه يعمد أساسا إلى عيون المسائل ولبّها دون الاشتغال بقشورها شأن الجلّة من العلماء المجتهدين، وهذا ما عبر عنه القاضي عياض في «الغنية» ونقله ابن فرحون في «**الديباج**»: **(وكان آخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد، ودقة النظر)**.

فكان للشيخ حكم ورأي في مجال التطلعات الجوية وله تفوق في المواطن الدقيقة في هذا المجال حيث تجده يأتي بتحريرات بارعة تكشف ما هو الصواب وعن الحقيقة مما لا تجده عند غيره، وهي المواطن التي تزل فيها الأفكار، مبرزا فن الاجتهاد الفكري ما يعزّ، مثل شرحه لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلّم في الحديث القدسي: (قال ربّكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ... - الحديث).

قال الشيخ وفقه الله في هذا المعنى الأوّل للحديث: هذا يحمل على أن المراد به تكفير من اعتقد أن المطر من فعل الكوكب وخلقه دون أن يكون خلقا لله سبحانه. وكانت العرب في الجاهلية إذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا لابدّ من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح فينسبون كلّ غيث إلى ذلك النجم.

وأما في المعنى الثّاني للحديث فأشار المازري أنّ من اعتقد أنّ لا خالق إلاّ الله سبحانه ولكن جعل في بعض الاتصالات من الكواكب دلالة على وقوع المطر من خلقه تعالى عادة جرت في

ذلك فلا يكفر بهذا بعبارة لا يمنع الشرع منها. فهو بذلك لم يقف موقف الجمود فيمنع ما يفيده علم الأنواء من ارتباطات بين ظواهر منبئة عن حدوث الأمطار مثلا. واستدل على عدم منع التطلعات الجوية بما ثبت في حديث نبوي آخر وهو : **(إذا أنشأتْ بَحريَّة ثمّ تشاءمت فَتلْكَ عَيْنٌ غُدَيْقَة)**. واستخرج هذا الارتباط من صنيع مالك رضي الله في «**الموطأ**» إذ جمع بين الحديثين وهو من خصائص الإمام في الربط بين الأحاديث سواء في العقيدة أو الفقه.

وكان له أيضا نظر سديد ودراية في مجال ترميم المعالم الأثرية والمحافظة عليها، فقد أفتى الشيخ المازري في محضر مضمنّه أنّ جماعة عاينوا سور القيروان من أبراجه ومادته وبدنه وجميعه وأنّه سائر إلى الهلاك والذهاب وأنّ جلّ سقوف أبراجه ذهبت وسائر كل عود ظاهر كذلك فأكّد، أنّ من حسن النظر لأهل القيروان وسائر من يرد عليها أن يبادروا سورهم ويبيع ما بقى من الأنقاض وينفق على أبراجه ويردّ جميعها بالآجر والجصّ فهو أبقى له وأسلم من الذهاب والاندثار، وذلك حسب أهل العلم والخبرة والعارفين بالأحوال والأبنية.

وكان للشيخ المازري كذلك نظر وفتوى في مسائل تهمّ مخازن المنستير وحقوق الساكنين فيها، فقد سئل عن مخازن بالقصر الكبير (الرّباط) من المنستير مملوؤة قمحا وشعيرا وعن قوم غرسوا غراسة في أرض المنستير ما الحكم فيها ؟

فأمّا الخزن ببيوت قصر المرابطين فأجاب رضي الله عنه بعدم استباحتها لتكون مخزنا للتجارات ومواضع الإدارات للتجارات، لأنّ القصر بني للرّباط والحراسة والتعليم. وأمّا في غراسة المرابطين في أرض المنستير فقد أفتى الشيخ في كيفية استغلالها وتداولها والتصرّف فيها.

أمّا عن كتبه فلم يكن وضعها من مقاصد المازري في حياته العلمية وإنّما حرص طلبته على حفظ وتسجيل ما تلقوه منه جعل هذه الإملاءات كتبا فقد كان «**المعلّم بفوائد مسلم**» أوّل تآليفه ثمّ صدر عنه كتاب «**إيضاح المحصول من برهان الأصول**» و «**شرح التلقين**» الذي وصفه القاضي عياض بقوله : «**ليس للمالكية كتاب مثله**» ثمّ كتب رسائل عدّة كلّما حدثت مشكلة حرّر رسالة أو فتوى.

وللمازري مؤلفات أخرى، تغلب عليها النزعة الكلامية، كالكشف والأنباء على المترجم بالإحياء، وهو رد على إحياء علوم الدين للغزالي. وإملاءات على رسائل إخوان الصّفا، وهي إملاءات سأله عنها السلطان الزيري تميم بن المعز (454-501 هـ / 1062-1108 م).

عاش الإمام المازري عمرا مديدا فقد تجاوز الثمانين بثلاث سنين. أمّا عن وفاته فقد اتفقت المصادر على السنة وهي 536 هـ /1141 م و كذلك الشهر وهو ربيع الأوّل، غير أنّ عياض يحدّد اليوم بيوم السبت الثالث من نفس الشهر وابن خلكان يحدّده بالثامن عشر منه أمّا حسن حسني عبد الوهاب فيحدّد الوفاة بيوم السبت الثامن من ربيع الأوّل (12 أكتوبر 1141 م) ويضيف أنّ جثمانه نقل من الغد في زورق من المهدية إلى المنستير حيث مدفن الصّالحين والعلماء. وفي القرن الثاني عشر خيف على قبره من البحر فأمر الأمير الحسيني علي باي الثاني بن حسين بن علي بنقل رفاته إلى مقامه المشهور به الآن بالمنستير، وكان ذلك ليلة الأحد الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة 1176 هـ / 1723 م. حيث كان منقوشا بحجر فوق باب المقام : «**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**».

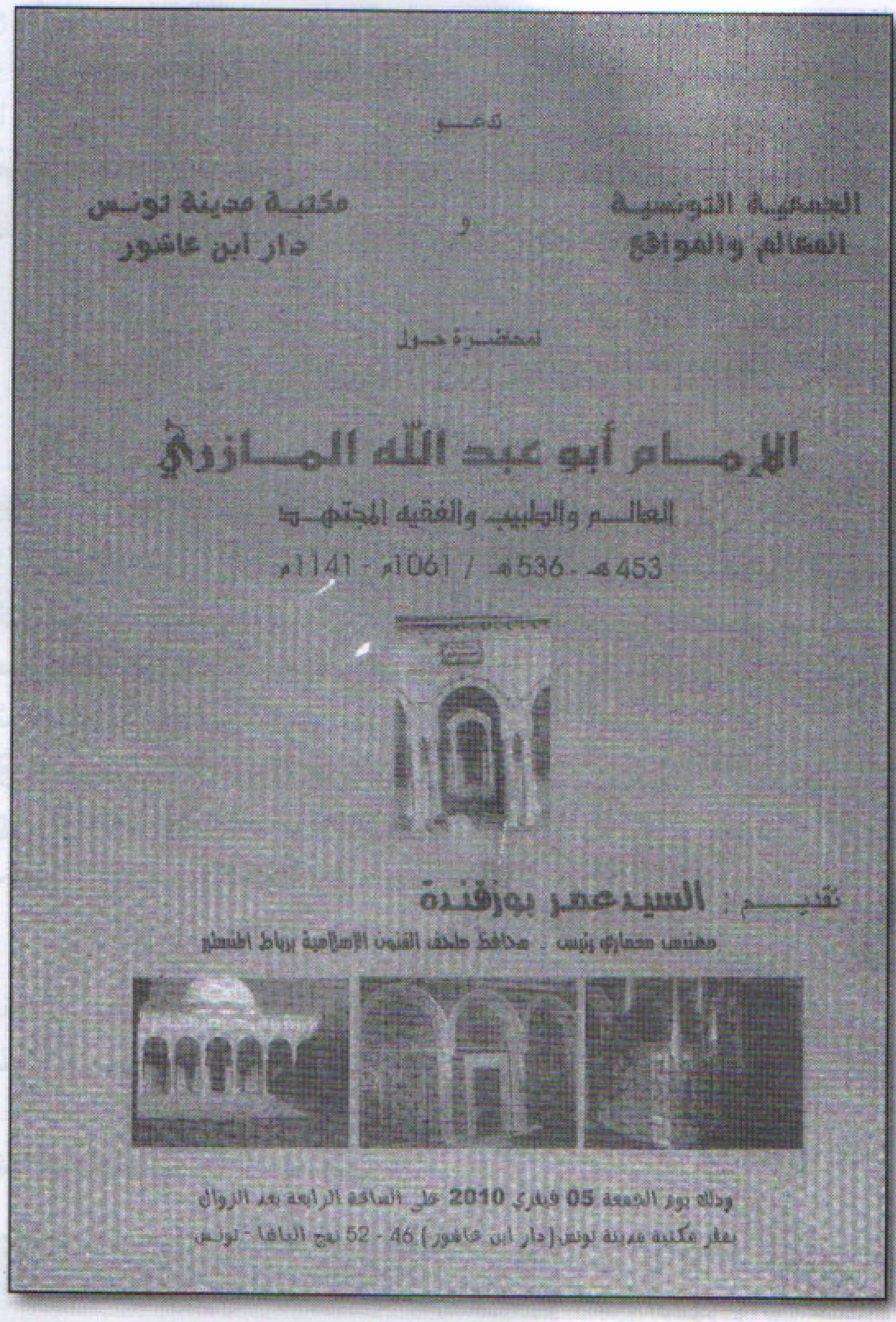

المراجع :

محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، دار الكتاب العربي، بيروت

محمّد الشاذلي النيفر، المازري الفقيه والمتكلّم وكتابه المعلم، منشورات اللجنة الثقافية الجهويّة بالمنستير

محمّد الشاذلي النيفر، المعلم بفوائد مسلم، الدار التونسيّة للنشر

الطاهر المعموري، دائرة المعارف التونسية، بيت الحكمة، قرطاج، كراس، 2/1991

حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربيّة بافريقية، مكتبة المنار، تونس

الطاهر المعموري، فتاوى المازري، الدار التونسية للنشر، تونس، مركز الدّراسات الإسلامية بالقيروان